

البنيات الأسلوبية وأثرها في إنتاج المعاني الثواني تفسير إرشاد العقل السليم لأبي السعود أنموذجا

diverted Styles and Their Impact on producing secondary meanings: Abu al-Su'ud's "Tafsir Irshad al- Aql al-Salim" as a Model

د. مراح عبد الحفيظ

جامعة زيان عاشور – الجلفة (الجزائر)، a.merah@univ-djelfa.dz

تاريخ النشر: 2025/10/25

تاريخ القبول: 2025/10/14

تاريخ الاستلام: 2025/08/23

ملخص.

يتناول موضوع هذه المقاربة البحث عن إرهابات الملمح الأسلوبي في لغة المفسرين، وقد رأيت أن العبور إلى ذلك يمكن أن يكون عميقاً من الناحيتين النظرية والعملية، باختيار تفسير "إرشاد العقل السليم"، ذلك أن العلماء قد أجمعوا أنه من أفضل ما يمثل الاتجاه اللغوي عند المفسرين، وقد اتخذت زاوية النظر إلى ذلك، ظاهرة الأساليب المعدولة عن الأصول المقررة في قواعد اللغة، ومدى إسهامها في إنتاج المعاني الثواني، والأمر كما هو واضح أسلوبي بحث، وبه قالت المدارس اللسانية والنقدية المعاصرة، من خلال مصطلحات عديدة، رأيت الحديث عنها انطلاقاً من مصطلح تراثي بديل هو العدول.

وفي المقالة ما يثبت القول بحضور البعد الأسلوبي في لغة المفسرين من خلال عمل أبي السعود.

كلمات مفتاحية: الأساليب، العدول، التفسير، أبو السعود، المعاني الثواني.

Abstract:

The subject of this approach explores the indications of stylistic features in the language of commentators. I believe that exploring this can be profound, both theoretically and practically, by examining the "Irshad al-'Aql al-Salim" (Guidance of the Sound Mind) commentary. Scholars have unanimously agreed that it best represents the linguistic orientation of commentators. I have taken this perspective: the phenomenon of styles deviating from established principles in the rules of language and the extent to which they contribute to the production of secondary meanings. This matter, as is clear, is purely stylistic, and contemporary linguistic and critical schools have addressed this phenomenon using various terminologies. I have chosen to discuss it through a reliable, alternative, traditional term: deviation "al-udul."

The article supports the assertion that the stylistic dimension is present in the language of commentators through the work of Abu al-Su'ud.

Keywords: styles; deviation (al-'udul); exegesis; Abu al-su'ud; Second meanings.

يسهم الموضوع المختار الموسوم بـ / الأساليب المعدولة وأثرها في إنتاج المعاني الثواني تفسير إرشاد العقل السليم لأبي السعود أنموذجا، في تكريس حقيقة مدى أهمية البعد الأسلوبي في كتابات السابقين، ولاسيما منهم كتاب التفاسير، وذلك بوصف كثير من المنبهات اللغوية، مثل: التقديم والتأخير، وتلوين استعمال الأساليب الانشائية والخبرية، والذكر والحذف، وعموم إخراج الكلام عن مقتضى الظاهر، في مختلف تجلياته، ولما كانت مباحث الإعجاز في اللغة مهمة في الإبانة عن سر عدم قدرة العرب عن إجابة التحدي للإتيان بمثل هذا القرآن الكريم، وهم أمة الفصاحة والبيان، قال تعالى: "وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) البقرة"، كانت مباحث ما عرف في التراث العربي النقدي والبلاغي بمقتضيات النظم، التي عرفت قمة النضج باعتبار حضور القيم الجمالية مع عبد القاهر الجرجاني، سيما في دلائل الإعجاز حيث عالج قضايا النظم من خلال البنيات المعدولة عن أصل وضع لغوي تحرصه القاعدة النحوية، وهي تسعى إلى تأكيد أهداف السلامة والصحة الضامنتان لأمن اللبس، بينما قصد العدول ألا يتوقف الأمر عند تحقيق الإفهام، بل يسعى إلى تحقيق الجمالية التي هي محصلة صناعة قيم الاستثناء والتجاوز، طلبا للوقوف على موجبات الإعجاز في لغة القرآن الكريم وأن الأمر خارج عن الاستطاعة البشرية، وربما لمسنا ذلك بكثير من الوضوح عند عبد القاهر، حين يقول متحدثا عن نظم القرآن، بأنه: "خارج عن طوق البشر وتجاوز قواهم"¹.

والشيء نفسه يتردد عند أبي السعود، بل يستخدم المصطلح نفسه وهو يقدم أدوات المعالجة التي يعتمد عليها في مقارنته للغة القرآن المعجزة، وأن الأمر منوط عنده بقيم التأثير، ولفت الانتباه، حيث الانفعال والدهشة، يذكر ذلك فيما يلي: "...وتفقوا على ما يتضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر"² من خلال: "النظم الرائق والمعنى الفائق"³

نعم يكون المستهدف عند الرجلين هي قيم الخرق، وتجاوز المؤلف، لصالح استعمالات تتميز بالخصوصية المستفزة للانتباه، الحاملة للمعاني الثواني المرهونة بخلق الاستثناء عند العدول عن النمطي المتداول.

الإمام أبو السعود، وتفسيره إرشاد العقل السليم:

فالرجل مولود في سنة: 893 هـ بقرية قريبة من القسطنطينية، من بيت عرف أهله بالعلم والفضل، مكث في منصب الإفتاء نحو من ثلاثين سنة، توفي سنة: 982 هـ⁴، ولم يكن ليتم له ذلك طبعاً، إلا بعد مسيرة علمية شاقة فقد كان "طالباً لمراتب العلوم السامية، رامقاً بطرفه المنازل الرفيعة العليا... حاز العلوم الأفراد، فاق وبرع وإلى أرفع المواطن ارتفع

5"

لعل في هذا الوصف ما يفي بالغاية في مثل هذه العجالة، فطبيعة العمل ليست جَمَلاً لأكثر من ذلك، إنما المراد فقط إظهار أن مثل المرتبة التي وصل إليها، ما كانت لتنال لولا مثل الجهد المشار إليه، والمنهج الذي اتبعه، فقد كان النظر ثاقباً، والعزيمة قوية، والأهداف دقيقة، فالرجل كما هو معروف أعجمي تمكن من اللغة العربية، بالقدر الذي جعله في موضع يكشف فيه أسراراً تعتبر إضافات نوعية في مباحثها، وفي ذلك الاعتبار الخاص للغة القرآن الكريم، إذ تشكّل الأداة المطوعة التي يسهل تعلّمها، ويسهل أيضاً النظر في عطاءاتها، ولا غرابة إن علمنا بعد ذلك، أن كثيراً من رجالها كانوا في

الأصل أعاجم خدموها فبوأتم المقامات العليا، وأن نختار الحديث هاهنا من خلال أبي السعود عن قضية هي المعاني الثواني، وهو كما نرى حديث متقدم في العمق، إنما أردنا أن نقول بأن العربية كالدين نفسه، المفاضلة فيه بما يقدم من جهد، وليس حكرا على الانتساب فقط.

أما بخصوص اختيار تفسير الرجل قاعدة انطلاق، تقوم عليها هذه المقاربة، فقد كان اهتمامه بالغا بالنواحي اللغوية عموما، والوقوف على اللطائف البلاغية على وجه الخصوص، وهو بذلك يتيح لنا تصنيف منهجه هذا، ضمن المسعى الذي خطه الزخشي في الكشف: " فهو يهتم بأن يكشف عن نواحي القرآن البلاغية، وسر إعجازه ونظمه وأسلوبه مما لا يكاد يظهر إلا لمن أوتي حظا وافرا من المعرفة بدقائق اللغة ويكاد يكون صاحبنا هو أول المفسرين المبرزين في هذه الناحية "6، إن الذي ورد في هذه الملاحظة هو خلاصة سجلها أحد أكبر الدارسين المعاصرين، الذين تتبعوا مسار منهج المفسرين، منذ أن كان التفسير إلى أيامنا هذه، إن محتوى هذه الأحكام، هو الذي دفعني إلى محاولة تأكيد مثل هذه النتيجة، لما للمباحث اللغوية من أثر صريح أو مستتر، في الإفصاح عن اهتمام المفسرين بالملاحم الأسلوبية في لغة القرآن الكريم، فكان الدافع على نحو ما سجله الذهبي من مسعى إبراز ظاهرة الإعجاز، ثم محاولة رصد المنبهات الأسلوبية من خلال ظاهرة عدول الأساليب عن أصل الوضع اللغوي المثالي، إلى إنشاء المنبهات الأسلوبية فهي تشد المتلقي بخروجها عن المؤلف من ناحية، ومكسبة الخطاب أبعادا دلالية هي المتحدث عنها تحت مسمى المعاني الثواني.

البنيات المعدولة والمزية الأسلوبية

وجب التنويه إلى العلاقة بين حقيقة ظاهرة العدول، ومن ثمة البنيات التي تتيحها عند الاستعمال، وبين المزية الأسلوبية، حتى إذا رصدنا ذلك عند أبي السعود، جاء تأكيدنا للمنزع الأسلوبي في تراث المفسرين مشفوعا بما يقوم عليه من أدلة تطبيقية، موصلة لما يعرف عند الجرجاني بالمعاني الثواني.

العدول لغة: يذهب الفراهيدي إلى أن " العدل: أن تعدل الشيء عن وجهه فتميله "7

العدول اصطلاحا: يرى عبد الحميد هنداي أنه: هو الخروج من النمط العادي أو المؤلف إلى النمط الفني المميز من الكلام "8. وأنه أي العدول هو " خرق العادة "9 و " المعدول عنه أصل للمعدول "10، ذلك أن الأصل المعدول عنه، هو الذي تستعمله العرب في كلامها، ولكنها تعدل عنه لنكتة بلاغية اقتضاها الحال "11 فمع ما تسمح به اللغة للاستعمال من تجاوز القواعد لاستهداف المعاني الثواني إلا أن الأمر يظل محروسا بالقاعدة، باعتبارها الأصل، وباعتبارها المؤثر من الوقوع في اللبس.

مستويات بنية اللغة عند أبي السعود

لقد أدرك أبو السعود ذلك جميعه، عرف أن اللغة بمستويين، المستوى الأول الذي يمثل الأصل المعدول عنه الضامن لصحة الكلام، والمستوى الثاني المعدول إليه المراد لتحصيل الجمالية، جراء الاستعمال البلاغي للأساليب، بغية إحداث التأثير بالقدر الذي يدفع المتلقي إلى مزيد من طلب الاستيعاب والفهم، وثمة تحصل المتعة، وتحصل معها المعاني الثواني، والأمر أكثر جلاء في لغة القرآن الكريم، وأن بحث هذا الأمر، تأكيد على البعد الأسلوبي في التراث عامة، وتراث المفسرين بصفة خاصة.

نعم إن إدراك الرجل لمسألة تشكيل التراكيب اللغوية على نحو خاص يقفز على ما تقول به القواعد، أمر يقرره في تفسيره، وإن شئنا مثلنا لذلك بقوله " إن التنقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في استجلاب النفوس واستمالة القلوب"¹² قال ذلك في مقام بحث بلاغة ظاهرة الالتفات وبلاغتها، وهي بلا شك إحدى أهم مظاهر عدولية الأساليب كما سوف نرى.

وفي موضع آخر، وتعزيزاً لبسط المرجعيات المؤسسة لنظرة أبي السعود، الفاحصة للمقدرات التي تزخر بها اللغة في تلوين الخطاب، يذكر: " وإن خطر ببالك أن كل وجه من وجوه النظم الكريم لا بد أن يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال والبالغ إلى رتبة البلاغة ودرجة الإعجاز، وأما ما عداه من الوجود فهو بمعزل من بلوغ طبقة البلاغة فضلا عن العروج إلى معارج الإعجاز"¹³

وفي معرض تفسيره للآية الكريمة: " وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَوَصَّلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (30) يونس " يقول موردا مفردة العدول مصطلحا بلاغيا بظلال أسلوبية صميمة، تشير إلى الدلالة الفنية الجمالية لمصطلح العدول، أو ما يعرف في النقد الحديث والمعاصر بالانزياح، والتجاوز... وغيرهما، يقول: " وأن العدول إلى الماضي للدلالة على التحقق والتقرر وأن إثارة صيغة الجمع للإيذان بأن ردهم إلى الله سيكون على طريقة الاجتماع لا يلائمه التعرض لوصف الحقيقة في قوله تعالى مولا هم الحق...."¹⁴

وفي عديد النماذج، وعلى امتداد آي القرآن الكريم، يظل أبو السعود يدل على وعيه التام بمقتضيات الإضافة الدلالية التي تمنحها القراءة المتأنية للتراكيب، والأمر لا يأتيه عرضا، إنما يقوم على خلفية معرفية مستوعبة لمستويات العطاء الذي تمنحه اللغة، يذكر في مثل هذا الموضوع " ولكن يعدل عن ذلك لنكتة أهم منه كما هو الحال في الآية: " وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِي (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي (80) الشعراء " فإن مقتضى الظاهر أن يقال والذي يسقميني ويشفيني، ولكن غير إلى ما عليه النظم الكريم تفاديا عن اسناد ما تكرهه النفس إليه سبحانه"¹⁵

فملاحقة ظلال الكلمات واضح في منهج أبي السعود ، وواضح معها أيضا أهمية أنها لما تقوم على حدوث تعديل يستهدفها، دلت على ذلك لفظة أوردها المفسرون يتحدث عن مصطلح النكتة ويربطها باعتبارها نتيجة لتعديل حصل في مستوى البناء اللغوي، وغني عن القول أن هذا الملفوظ وبمولته المضافة وبعده الجمالي وارد كثير عند عبد القاهر، حيث حديث النكت واللطائف، والملاحظ أنها أي مصطلح النكت بهذا المقصود ترد في هذا التفسير ومرتبطة بالقيمة الفنية الجمالية ولقد رصدنا إن شئنا ذلك في مثل قوله : (نكتة رائعة)¹⁶، (نكتة المبالغة)¹⁷ (نكتة رائعة)¹⁸، (نكتة بديعة)¹⁹، (نكتة خفية)²⁰ ، فمجموع الصفات التي يعطيها المؤلف لمفردة النكتة، توحى بل تؤكد صراحة حرص الرجل على تتبع خواص الأساليب، أملا في الوقوف على المعاني الثواني، وربما كان إلحاحا على البعد الأسلوبي انطلاقا من هذا الوعي بإجرائية الأساليب وما تنتجه في مستوى الدلالة، هو الذي يؤكد الملمح الأسلوبي، فيأى أي مدى كان ذلك حاضرا في لغة المفسرين من خلال أبي السعود ولذلك سجل الدارسون أن الرجل قد " اعتنى في تفسيره بالنواحي البلاغية"²¹.

ويظهر شديد الولع بالنظر ليس للإجراءات البلاغية فقط، بل بما يختص منها على وجه الدقة بالاستعمال الاستثنائي الذي يتطلبه توظيف الأساليب لأغراض دلالية مختلفة مثل " باب الفصل والوصل، والإيجاز والاطناب، والتقديم

والتأخير... كما أنه يهتم بإبداء المعاني الدقيقة التي تحملها التراكيب القرآنية²²، والملاحظة التي صارت مرصودة من قبل كل الذين تلقوا تفسير الرجل حتى قال أحدهم أن: "اهتمامه بالنواحي البلاغية أمر اتفق عليه الدارسون له"²³. ولعله في هذا التوجه خصوصاً بيدي تأثراً بليغا بالإمام عبد القاهر، "قد طبق أبو السعود فكرة النظم التي استوى عودها عند الجرجاني"²⁴، ومعلوم بوضوح جلي ولوع الجرجاني بمعاني النحو التي هي في جوهرها تتبع لخواص التراكيب، وما تفرزه هذه الأخيرة من كثافة في المعاني، تبرز هذه الملاحظة بوضوح في مثل ما يقوله الجرجاني عن أسلوب التقديم والتأخير "لا يزال يفتر عن بديعة ويقضي بك إلى لطيفة فتجد سبب أن راقك عندك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"²⁵، وتلك إحدى الحقائق التي تؤسس مفهوم العدول بظلاله الأسلوبية، "في العدول معنى الخروج أو التحول عن المؤلف، ونقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر مطلقاً، وهذا الانتقال له أثر الفني والجمالي"²⁶

وأبو السعود دائم التذكير بأولوية معيار الذوق في التعرف على عطاء اللغة عامة، وعطاء الأساليب المعدولة بصفة خاصة، وفي ذلك إشارة بالغة لأهمية المباحث البلاغية التي تجعل قيم التذوق إحدى أهم أولوياتها في التركيز من أجل رصد الإضافات الدلالية المتمثلة في المعاني الثواني وسبل انتاجها إن عند منشئ الخطاب أو متلقيه، وإذا شئت نظرت إلى ملاحظاته الكثيرة التي منها قوله: "كما يشهد به الذوق السليم"²⁷، "يقضي به الذوق السليم"²⁸ "يأباه الذوق السليم..."²⁹

والرجل لم يكن بدعا في ذلك، فقد سبقت الإشارة إلى تقاطعاته في طريقة المعالجة التي استمدتها من سابقه مثل: عبد القاهر، والزمخشري، والبيضاوي، ثم ها هو السكاكي الذي عُدد علامة فارقة، ونقطة تحوّل في مسار البحث عن أرضية نظرية تؤسس للبلاغة باعتبار الإجراءات، وباعتبار المآلات، يقول: "ومدرك الإيجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمه هذين العلمين"³⁰ يريد البلاغة والفصاحة.

بيحثنا لميراثه بحسب ما تسمح به طبيعة المقالة، نسجل من خلال هذه الوقفة العجلى، أن أبا السعود مالك لأدوات المعالجة اللغوية والبلاغية، وأن لهذه المعالجة إطارها النظري، وأن هذا الإطار يحيل إلى وعي منهجي صميم زانته قدرات علمية رصينة، وإطلاع على لغة القرآن الكريم، ليس باعتبار تفوقها في صناعة التواصل فقط، بل بطاقتها الكامنة التي لم تؤمن لها الأبهى فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى مجموعة لا تحصى من قيم الشّدِّ والتأثير.

المعاني الثواني وعلم المعاني:

المعاني الثواني:

إن اختيار بحث المعاني الثواني رحب بالقدر الذي يتوفر في مختلف مفردات البلاغة أو يكاد، الأمر الذي يجعل مسألة ملاحقة مختلف صورها من الصعوبة بمكان، وربما تجاوز ذلك حدود المقالة، إلى أشكال أطول من البحوث، لذلك أمنا الوجه صوب متاح علم المعاني، لعلنا أنها تقدم صورة واضحة المعالم عن مجهود أبي السعود في بحثه لقضية الارتباط بين علم المعاني وما تتيحه أقسامه من معان ثوان.

يقول عبد القاهر عن دلالة اللفظ، حيث المعنى الأول والمعنى الثاني "ثم يعقل السامع ذلك المعنى، على سبيل الاستدلال، معنى ثانيا هو غرضك، كمعرفتك من كثير رماد القدر أنه مضياف"³¹، يضيء عبد الفتاح لاشين، هذه المسألة

مبيناً مدى الحاجة إليها، أنها المآل المراد، بقوله: "وهذا المعنى الثاني، وتلك الدلالة الإضافية هي المقصد والهدف في البلاغة"³² والأمر من الأهمية بمكان، ذلك أن عدم تحصيل المعنى في جميع مستوياته قد لا يفي بالغرض من الخطاب، ففي معرض حديثه عن مثل هذه الملاحظة ومدى خطورة الإخلال بها يقول ابن قيم في معنى الآية الكريمة: "فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78) النَّسَاء" ، "فدم من لم يفقه كلامه والفقه أخص من الفهم، وهو فهم مراد المتكلم من كلامه، وهذا زائد على مجرد فهم اللفظ في اللغة"³³ وأهمية النظر في المعاني عامة، ومعاني القرآن خاصة نجده في تراثنا من سبق ابن قيم إلى تأكيد ذلك، وهو يتحدث في شأن المعنى بوصفه إحدى أهم ما يجب صرف الجهد لإدراكه، مثلما هو عند الخطابي إذ يقول: "المعاني التي تحملها الألفاظ فالأمر في معاناتها أشد لأنها نتائج العقول"³⁴، والرجل ذاته سبقه الباقلاني منبهاً إلى ضرورة است فراغ الوسع إماماً بمختلف مستويات المعنى، يقول: "وأمر معاناة المعاني التي تحملها الألفاظ، شديدة بالغ الشدة"³⁵.

وأمر الأهمية هذا نجد له صدى عميقاً عند أبي السعود، فهو يقول: "أوابد المعاني"³⁶ والأوابد كما هو معروف هي حمر الوحش التي يستعصي اللحاق بها، إلا بعد جهد يجب أن يصرف، وقد وردت هذه الصورة عند امرئ القيس في معلقته حين وصف سرعة فرسه، ويذكر أبو سعود في سياق آخر مُشعراً بأن طلب المعاني يحتاج إلى عمق في النظر والتحليل، قال: "يعلمون ما في تضاعيفها من المعاني الرائقة"³⁷، ومفردة التضاعيف تستدعي بذل المزيد من المعاناة، طلباً لمختلف مستويات المعنى، ولا سيما المضمرة منها، ويذكر في موضع آخر وصفا لهذه الأخيرة، فيقول: "المعاني الرائقة الكاشفة عن الحقائق الفائقة"³⁸.

إن مثل هذه الوقفة مع ملفوظ المعنى أملت بها طبيعة هذه المقاربة، وأملت بها في الوقت نفسه طبيعة التعرض للقرآن الكريم بالتفسير، ذلك أن المقصد العام منه هو الكشف عن هذه الأخيرة، وليست تلك التي تطفو على السطح فحسب، وانتهاءً من ذلك إلى معاني الهداية العامة، ذلك المطلب الشريف الذي ارتضاها الله سبحانه لعباده.

ففي مثل هذا السياق تنزل قضايا المعنى عند أبي السعود، ولذلك كان مزيد الكشف والاستدراك، وإلا لاكتفى علماء الأمة بما سبقهم من التفاسير.

علم المعاني:

يفسر محمد أبو موسى مقولة حازم القرطاجني: "وقد أشرنا إلى بعض ما ينحو الشعراء نحوه، فيما يرجع إلى الأمور لفظية أو معنوية أسلوبية... وكان ما تعلق من ذلك بالأسلوب هو المعتمد ذكره في هذا المعرض"³⁹، فيقول أن هذه المفردات: "كلها داخلية في وظيفة علم المعاني"⁴⁰ ثم يعلق: "ونرى أن الأحوال اللفظية والمعنوية والأسلوبية داخلية في وظيفة علم المعاني لأننا لا نفهم الألفاظ معزولة عن وحييها وجرسها ومدى ألفها"⁴¹ وانطلاقاً من هذا الفهم خلص إلى هذه الفائدة "بهذا يكون الأسلوب أو علم الأساليب فرعاً من فروع علوم البلاغة... تمده ويمدها"⁴²، لعل في مثل هذه الملاحظات ما يؤكد صدق الملمح الأسلوبي في تراثنا النقدي والبلاغي.

في علم المعاني تتجلى بكثير من الوضوح قضايا المعاني الثواني التي تنتجها الأساليب المعدولة عن أصل الوضع الذي تقوم عليه أبنية اللغة في مستوياتها المثالية المعيارية، وضرورة تحري النتائج في مستوى الدلالة المضافة الكائنة بفعل تجاوز مقتضى الحال والخروج عنه.

لا نحسب أن الأمر يتسع لتفصيل علم المعاني الذي يعرف أقساماً، وتفصيلات كثيرة، إنما نستفيد فقط من بعض تحليلاته، حيث تظهر فاعلية الخروج عن مقتضى الظاهر حيث تبرز بوضوح المعاني الثواني باعتبارها نتائج لذلك الخروج، ذلك أن " علم المعاني هو العلم بأحوال الألفاظ العربية المطابقة لمقتضى الحال " ⁴³، فتبرز " الأسرار البلاغية وراء بناء التراكيب، ويجلي الأسرار البلاغية وراء العدول عن الأصل والخروج عن مقتضى الظاهر " ⁴⁴

يتأكد جراء هذه الملاحظة أن الذي أردناه من الوقوف، فقط على علم المعاني، هو ما ذكر من مسألة العدول عن الأصل وما يفضي إليه من الأسرار الدلالية، وحرى القول أن السر في حاجة دائمة لمكتشف، " وهو لا يتوخاه في الكلام إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارها وفتش عن دوائها " ⁴⁵

وقد كان القصد ههنا هو انتقاء بعض مفردات هذا العلم، والعمل من خلالها عن كشف مدى أهمية التعامل الأسلوبي معها، من قبل أبي السعود، حتى تتحقق لنا جدارة الاستحقاق الذي راهنا عليه، وهو يتجاوز النمطية، إلى تحصيل المعاني الأسلوبية باعتبارها إرصاصات يمكن الاتكاء عليها حين القول بالملح الأسلوبي في تراث المفسرين، " مباحث علم المعاني، فقد عدوها عدولات عن أصل مثالي مفترض، ومنها نفذوا إلى ملامح جمالية وأسلوبية... ودلالات ثانية يعنى بها البلاغي " ⁴⁶ وإذا شئنا تحسس ما يقوم دليلاً على مثل هذه الرؤية وجدنا قبل أبي السعود، أن العلوي قد تحدث بمثل هذا القول عن إحدى مفردات علم المعاني: " قد يلقب بشجاعة العربية - يعني الالتفات - ومعناه في مصطلح علماء البلاغة، هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول " ⁴⁷، ولعلنا نجد صدق هذه الملاحظة أيضاً عند أبي السعود، حيث يربط بين البعد الفني للتشكيل اللغوي، المتوقف على حسن سبك الأساليب، بما يستجيب لداعي الخصوصية و يتجنب النمطي المثالي منها، يقول: " افتتان الكلام ... أن التنقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في استجلاب النفوس واستمالة القلوب " ⁴⁸.

والقول في التراث بمفهوم شجاعة العربية، وما يمكن أن نسجله من مفردات مشابهة، الذي يعني بوضوح شديد الإقبال على النماذج الأسلوبية، التي تصنع بنيات تعبيرية تتخطى اللغة النموذجية، بشكل لا ينتهي عند أبي السعود ولا يبدأ مع العلوي، إنما شجاعة العربية بهذه الحمولة الدلالية، نجده قبل ذلك عند صاحب الخصائص، لما أفرد له فصلاً خاصاً يعرف بباب "شجاعة العربية"، وقد ذهب به مباشرة إلى الوجهة العملية المؤكدة للملمح الأسلوبي في الوعي اللغوي التراثي، يقول موجهاً: " اعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والعمل على المعنى والتحريف " ⁴⁹.

وما أحسب أن واحداً من الأسلوبيين المحدثين قد أغفل الحديث عن المزية الجمالية لمثل هذه المفردة بل بل بذكره مصطلح التحريف، فهو يتقاطع بصورة جلية مع المصطلح الأسلوبي المعاصر، وربما أضاف عند إضاءته لمفهوم شجاعة العربية، ما هو شديد الأهمية في ضبط ملامح الاتجاه الأسلوبي في التراث العربي، وذلك عندما يقرر أن "الاتساع فاش في جميع أجناس شجاعة العربية" ⁵⁰، إن جميع هذه الظواهر اللغوية هي جوهرها الأساس الذي تقوم عليه البلاغة العربية عامة، وعلم المعاني خاصة لذلك تجد أن اعتماد هذا الأخير حاضنة لبحث المعاني الثواني أمر له ما يبرره.

وبعد هذا المهاد النظري، الذي كان القصد منه، وضع المتلقي أمام حقيقة معرفية تشير إلى أن فهم علماء اللغة، وعلماء التفسير، قد قام على دراية بأن عطاء اللغة على مستويات، وأن المطلب الأساس هي المعاني المستكنة التي لا تفصح عن نفسها إلا باعتبار القراءة العلمية الدقيقة، التي تراعي قضايا الخروج عن مقتضى الظاهر، والعدول إلى تراكيب تتجاوز النماذج النمطية، وأن تحصيل أبي السعود من خلال ما بيناه، دل على أن الرجل وإن لم يُنظر للاتجاه الأسلوبي، إلا أنه اعتمد كثيرا من مقولاته طلبا للمعاني الثواني.

ولعل فيما يستقبلنا، في المقاربة التطبيقية، جملة من مفردات علم المعاني ما يقوم مؤشرا على الملمح الأسلوبي، وأنه في أدبيات أبي السعود إرغاصات جادة تدلل على هذا الاتجاه خاصة من خلال مفردات علم المعاني، وفيما يلي ما بعض من النماذج التي تؤكد ذلك:

خروج الخبر عن مقتضى الظاهر.

العدول من النهي إلى الإخبار

يذكر أبو السعود في تفسيره الآية الكريمة "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ" (83) البقرة " لا تعبدون إلا الله " وهو إخبار في معنى النهي .. وهو أبلغ من صريح النهي لما فيه من إيهام أن المنهي حقه أن يسارع إلى الانتهاء عما نهي عنه فكأنه انتهى عنه فيخبر به الناهي ..⁵¹، فالغاية إذاً من العدول في هذا المستوى، أي إثارة الخبر عن الانشاء فيكون النهي له دلالة أعمق وهي اللطيفة (المعنى الثاني) الذي ارتضاه الخطاب القرآني، وقد أمسك أبو السعود بالمعنى المرجو وقد تأتى له ذلك برصد مخالفة الظاهر المتمثل في النهي المباشرة، وتلك هي حقيقة البعد الدلالي التي يرصدها المفسر في مثل مقارنته للغة من هذه الزاوية، ووفقاً لمنظور الأساليب المعدولة وقدرتها على إنتاج المعاني الثواني، أو اللطائف التي لا تتيحها الأساليب النمطية المألوفة.

الاستفهام

قال تعالى: " يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63) التوبة" الأصل في استفهام معروف وصيغته كما هو ظاهر في لغة العرب هي تحصيل الطلب، فإن المؤلف وفي إطار ما نحن بصدد نراه يهتم كثيراً بتجلية المعاني الثواني المستفادة من هذا الانشاء، ولعله هو المقصود الأساسي من التعبير فحاشا أن تتوقف القراءة عند بعده في الأصل فحسب، والأمر متعلق بلغة القرآن الكريم وهي تستهدف هداية الناس، ولتنظر إن شئت إلى قول أبي السعود: "والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه... وقرئ بالتاء على الالتفات لزيادة التقرير والتوبيخ"⁵²

والجميل المسجل فيما سبق الربط بين ظاهرة الاستفهام، وظاهرة الالتفات، والأمر يشير إلى مدى إلحاح المفسر على تبني روح المنهج الذي ظل وفيا له، ألا وهو الربط بين التشكيل اللغوي والمقاصد المأمول إبلاغها للمتلقي، الذي

يفترض أن يكون مزوداً بمفاتيح تسمح له بالولوج إلى مثل هذه اللطائف التي وقف عندها، كما هو شأن المعاني الثواني المشار إليها في هذه القراءة، وهي: التوبيخ، وليس مجرد استفهام.

والمعنى ذاته يقف عليه في قراءته للآية التالية " طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيْرًا هُمْ (21) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) محمد"، فيذكر أنه تعبير الاستفهام جاء "بطريق الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع"⁵³.

فها هو يؤكد أن صياغة الأساليب اللغوية المعدولة شديدة العمق، بما تحقّقه من تكثيف للدلالة، وإنما أتاح ذلك تشكيل التراكيب تبعاً لمقتضيات إجرائية العدول حيث يتم القفز ها هنا من مجرد السؤال المراد منه تحصيل طلب ما، إلى فضاء دلالي أرحب، كم يكون الكشف فيه عن المعاني الثواني من المتعة، فالاستفهام يوجب تحصيل المطلوب على الوجهة التي تقول بها القاعدة النحوية، إنما بعدوله عن ذلك صرفنا إلى معانٍ ثانية أشار إليها المؤلف كما قد رصدنا.

التقديم والتأخير والمعنى

إنما يحصل هذا العدول، وفي مستوى التركيب لغايات تتعلق بالمعنى لم تكن لتفضي إليها العبارة لو بقيت في بنيتها الأصلية إنه باب "كثير الفوائد جم المحاسن، واسع التصرف بعيد الغاية.... يفضي بك إلى لطيفة"⁵⁴، ومعلوم مما سبق أن اللطائف في جوهرها ليست إلا المعاني الثواني، التي تنتجها إجراءات العدول، بتجاوزها للأسس المعيارية للغة، والأمر غاية في الوضوح في إجرائية التقديم والتأخير كما سوف يظهر.

وفي تعليق بين الدلالة يترجم أبو السعود ذلك بجلاء وهو ينظر في قوله تعالى: " هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (113) البقرة"، يقول: "... وتقديم الظرف في الموضعين للتشويق إلى ما يذكر بعده من الخزي والعذاب لما مرّ من أن تأخير ما حقه التقديم موجب لتوجّه النفس إليه فتمكّن فيها وروده فضل تمكّن"⁵⁵، ولا أحسب أن الأمر في حاجة إلى أي نوع من التعقيب، فوعي أبي السعود اللغوي أدق من أن يضاف إليه، وحقيقة إدراكه الأسلوبية في معالجة مسألة التقديم والتأخير بيّنة واضحة، ثم ما تضيفه من ظلال دلالية، وقد كشف الرجل عنها حين ذكر مسألة التشويق وهو ملمح أسلوبية يسهم في التأسيس لقيم شدّ المتلقين، حتى تستثار ملكات الفهم لديهم، وكم كان لافنا للانتباه قوله توجّه النفس إليه فيتمكن فيها عند وروده فضل التمكن، فهو أسلوب يجمع هذه المقدرات في انتاج قيم التواصل المحققة للتفاعلية، وإيجابية الإدراك، والأهم المشار إليه، قدرة الخطاب القرآني على دمج المتلقي ليس انطلاقاً من رغبته هو فحسب، إنما إضافة إلى ذلك فهو مدفوع بطبيعة الصيغة الأسلوبية القائمة على عدولية ظاهر تأخير ما حقه التقديم، وذلك جميعه منصوص عليه في الاقتباس آنف ذكر.

وكما في قوله تعالى: " أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) الشّرح"، " وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (7) الزمر" إلى غير ذلك"⁵⁶، وفي معرض حديثه عن الآية التالية، قال تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22) البقرة" تعميق الإحساس بقدرة أبي السعود في ملاحقة المعاني الأكثر بعداً عمّا تحيل إليه القراءة العجلى من معاني قريبة المأخذ، وإذا شاء المرء التأكد من هذه المسألة نظر في تعليقه التالي: " وتقديمه على المفعول الصريح لتعجيل المسرّة ببيان كون ما يعقبه من منافع المخاطبين، وللتشويق إليه لأنّ النفس عند تأخير ما حقه التقديم لاسيما بعد الإشعار بمنفعته مترقبة له فيتمكن لديها عند وروده عليها

فضل تمكن...⁵⁷، والملاحظ أنه في المثالين، يتحدث عن عنصر التشويق، ويتحدث أيضا عن فضل تمكن، وهو تحصيل الفائدة من زاويتين، أما الأولى فهي شد المتلقي بعنصر إثارة الشوق، والثانية بإرساخ المعرفة حتى تستقر في الوجدان حيث يتحقق الإيمان، وتحقق الهداية.

وأن هذا العطاء الدلالي متعلق بالبعد الإجرائي المتمثل في عدولية التقديم والتأخير، ذلك بإرباكها للمألوف المتداول، حين تبنى الجملة على نمطية إذ المبتدأ أولا، ثم الخبر، وأسبقية الفعل عن الفاعل في الجملة الفعلية، وبهذا الإجراء الأسلوبي تتجاوز التراكيب اللغوية صرامة القاعدة، لصالح إحدى قيم التجاوز، وما يمكن أن تنتج من أبعاد دلالية، هي التي عرفنا أنها المعاني الثواني، وأنها يجب أن تصل إلى المتلقي، لأنها تتعلق أولاً وآخرها بالغاية العظمى من التنزيل الحكيم. إن صدقية ملاحظة فاعلية إجرائية التقديم والتأخير باعتبارها عدولا عن أصل وضع، جاء لصناعة قيم لفت المخاطب والتّمكين للمعاني المدرجة في الخطاب. مما يقول في شأن الآية، قال تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ (7) آل عمران" ... ولام الكتاب للعهد وتقديم الظرف عليه لما أشير إليه فيما قبل من اعتناء بشأن بشارته عليه السلام بتشريف الإنزال عليه، ومن التشويق إلى ما أنزل فإن النفس عند تأخير ما حقه التقديم... تبقى مترقبة له فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن⁵⁸ فحضور مصطلح التشويق، ومصطلح فضل التمكن، بهذا الإلحاح يفيد بدون أدنى شك، أن المسألة لا تعد مجرد لغة للتحليل، بل إلى أبعد من ذلك، ألا وهو حديث عن الأبعاد المنهجية التي تشبث بها أبو السعود في مثل هذه المقاربة، والخلاصة أن اللغة في شقيها البنائي المركب وفقا لمقتضيات الخصوصية كما هو شأن ظاهرة التقديم والتأخير، وما يتيح ذلك من معاني يولدها التفاعل الواعي معها، لم يكن ليغيب عن حس علماء التفسير سيما الذي جنحوا إلى البعد البلاغي والذين كان أبو السعود من أكثرهم انتباها لحساسية الخطاب القرآني.

ولولا أن يطول الاقتباس بشأن هذه الإجرائية الأسلوبية لأوردنا كثيراً من الملاحظات التي تؤكد أن ثمة رؤيا دقيقة وشاملة، قوامها أن تلوين الخطاب أدخل في تنشيط التلقي الذي يحث عن الاندماج والتفاعل، يقول متحدثا عن الآية: "وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ (20) الحجر" إذ لو تأخر لكان صفة له وتقديمهما على المفعول، مع أن حقهما التأخير عنه لما مرّ غير مرة من الاعتناء بشأن المقدم، والتشويق إلى المؤخر فإن النفس عند تأخير ما حقه التقديم... تبقى مترقبة لورود المؤخر فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن⁵⁹، إن الذي أردنا من هذا الشاهد، ليست المعاني الثواني التي تحصل بالتقديم والتأخير، وهي واضحة بيّنة، إنما كان القصد التأكيد على أن تتبع أبي السعود لهذا الإجراء اللغوي المعدول، كان رؤيا وليس أمرا عابرا وإذا شئت فانظر في قوله: لما مر غير مرة من الاعتناء

بشأن المقدم فالأمر كما صار واضحاً عادة مستحكمة في التحليل اللغوي للأساليب المعدولة، وفي ذلك الحديث جوهر الملمح الأسلوبي في تراث المفسرين.

وتزداد رغبة المفسرين في الحرص على ضرورة رصد عطاءات الأساليب المعدولة، لأن في ذلك الحفر عن المعاني واللطائف التي يجب أن تستفاد، وربما زاد الأمر أهمية علاقة ذلك بالخطاب القرآني، فنحن نعلم أن المفسر عالم دين أولا، وهو إمام في ذلك، الشيء الذي قاده إلى تحصيل هذه المعرفة الساعية ليس لشرح مفردات القرآن الكريم، فالأمر متاح وبمجهود أقل، إنما كان القصد الوقوف على غايات المعاني وإبلاغها على الوجه الأتم، والمفسر في ذلك يرجو أن يعود صنيعة عليه أولاً، وعلى المتلقين ثانيا بالمتوبة والأجر الكبير.

يذكر عبد القاهر ما يحقق هذه المسألة، أو ما يترتب عنها من تكثيف للدلالة بما يفضي إلى مزيد في المعاني الثواني، يقول: " فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتحدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين"⁶⁰ ففي هذه الثنائيات المتقابلة يكمن سر جمالية العدول، فالأصل في بناء الكلام إنما هو الذكر، فكيف يكون الحذف يمثل هذه القيم التي أوردها الجرجاني، وهو اعتراف بأسلوبية هذه الظاهرة - أي ظاهرة الحذف - باعتبارها جوهر الاختيار الذي هو أساس الإنشاء الأسلوبي، حيث الاختيار " عدولٌ عن المستوى النمطي أو العادي من اللغة، إلى المستوى الفني من الكلام"⁶¹.

ذلك حين تحيل اللغة على المعاني الثواني الواجب تفصيلها، حتى تحصل الفائدة المرجوة من الخطاب، وربما أرشدنا أبو السعود إلى بعض منها فيما يستقبلنا من هذه النماذج المختارة.

منها ما جاء في تفسيره قوله تعالى: " وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ (88) البقرة "، قال: على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه للمبالغة أي تَدَاخَلَهُمْ حُبُّهُ ورسخ في قلوبهم صورته لفرط شغفهم به وحرصهم على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب أعماق البدن وفي قلوبهم بيان لمكان الإشراب"⁶² والذي أمكن تسجيله ههنا أن الرجل قد قرأ الآية في ضوء ما أتاحته إجرائية الحذف وهو كما نلاحظ منه أسلوبى يستوقف القارئ المتملي الذي يعي أبعاد حركية البناء اللغوي، حيث تظهر المعاني التي لم تكن كذلك لو حصرها على الذكر، وليس الحذف كما هو مبين في هذه القراءة إلا عدولا عن أصل هو الذكر. فثمة فجوة في البناء تركها الحذف، ولكنها فسحت المجال رحبا لمزيد المعاني التي تتطلبها السياق، سياق الكلام، وسياق طلب الفهم، وربما صار المهم هنا هو البحث عن إعمال الفكر والنظر بما يفضي إلى نوع من تفاعل المتلقين الإيجابي.

وعندما نظر في الآية الكريمة " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(161) البقرة " قال تعليقا عن المحذوف منها: " أي في اللعنة أو في النار على أنها اضمرت من غير ذكر تفخيما لشأنها وتهويلا لأمرها"⁶³

فمن المقاصد الدلالية للعدول عن الذكر إلى الحذف هذا المعنى الثاني الذي تمكن منه النظرة الفاحصة هو تفخيم شأن النار وتهويل أمرها فكم هي خسارة أن لا تتم القراءة على هذا النحو وتكتفي بالمعاني الأول، وبعدم نفاذها إلى مثل هذه المقاصد، لذلك وجدنا مثل هذا التنبيه " المعاني الأول هي مدلولات التراكيب... والمعاني الثواني الأغراض التي يساق لها الكلام"⁶⁴

والخلاصة أن المعاني الثواني كما هو مبين في هذه الملاحظة التراثية هي هدف الخطاب والتي لا تتأتى إلا لمن أجاد قراءة الأساليب في ضوء قيم العدول الأسلوبية، حيث المنبهات اللغوية المحيلة على اللطائف والدلالات الكامنة والتي من شأنها إدماج المتلقي بدفعه إلى إعمال جميع قدراته على التعقب والكشف . وفيما رأينا قدرة أبي السعود في ملاحقة ذلك، ولا شك أن الذي أسعفه هو وعيه العميق بمستويات العطاء التي يمكن أن تحيل عليها اللغة، متى أدركت جميع أبعادها.

عدولية الالتفات وامتدادات المعاني

لا نريد الخوض فيما اختلف فيه بشأن تصنيف الأساليب المتنوعة التي يتيحها بناء التراكيب تحت مسمى الالتفات، ذلك أن السكاكي الذي يعود إليه كبير الفضل في التصنيف البلاغي قال: " ويسمى النقل التفاتا عند علماء علم المعاني"⁶⁵، فهو يضعه ضمن مفردات علم المعاني كما ترى، وأبان عن قيمته الجمالية المرتبطة تأسيسا بمدى العدول الذي يحصل فيه، وهو به فقط يكون " أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملاً باستدرار إصغائه وهم أحرىء بذلك"⁶⁶، فقيمة شدّ المتلقي إذاً مضمونة، ولعل هذه القيمة كما هو مبين من أهم مطالب الأسلوبية قصداً، وبذلك يعد الالتفات استثماراً كبيراً لإمكانيات اللغة، فإلى أي مدى كانت قراءه أبي السعود عميقة بالقدر الذي تستطيع معه تحصيل هذه المعاني؟ يذكر في تعليقه على الآية التالية، في سياق ما سبقها من الآيات " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) البقرة " " أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هذا لهم إلى الإصغاء وتوجيهها لقلوبهم نحو التلقي"⁶⁷ و الملاحظ أن المعنى ذاته، بل يكاد أن يكون التعبير عنه واحداً، وجاء إبراز الدلالة المرجوة في الالتفات كامنة عند أبي السعود، كما أنها عند السكاكي ألا وهي تحصيل الاستقطاب، بغية تحصيل المتابعة ومحاوله الاستيعاب، لأن الهداية المرجوة من الخطاب القرآني، إنما تأتي بحضور العقل الواعي الراغب في المعرفة، والإيمان، وذلك لا يتأتى بغير التمكين لمضامين هذا الخطاب تامة، وتلك المزية من القيم المضافة عند أبي السعود.

ففي المصطلحات الواردة في هذه الملاحظة: الاصغاء، التوجيه، التلقي، كما ترى مفردات لا تخلو منها المباحث الأسلوبية المعاصرة، وهي تقارب قضايا اللغة، فبمثل هذا الفهم يبحث ابن السعود ظاهرة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، كما نجده في تعليقه، الذي يقف فيه على إحدى صور المعاني الثواني، يقول بشأن إبلاغية الالتفات في الآية التالية، قال تعالى: " وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) مريم " ، يقول ابو السعود: " رد لمقاتلهم الباطلة وتهويل لأمرها"⁶⁸، والملاحظ أن هذا المعنى الذي استشفه، إنما أسعفه عليه تحليله القائم على قراءة التركيب اللغوي المعدول تحت مسمى الالتفات، يقول: " بطريق الالتفات المبني عن كمال السخط، وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة، والإدّ... العظيم المنكر"⁶⁹، والأمر كما هو بين يتضمن الكثير من المعاني، وأن هذه المعاني لا تأتي إلا لمن كانت قراءته عميقة، وفهمه لعطاءات اللغة أصيلاً، ينطلق من ملاحظة بنية الأساليب، ولا ينتهي إلا بتحصيل مختلف المعاني الظاهر منها والمستتر، استكمالاً للفهم، والإفهام، مخافة أن يفوت من معاني الهداية شيء.

وفي الختام جاز لنا أن نطمئن إلى نتائج بحث إشكالية هذه المقاربة، التي سعت إلى تقديم بعض الأدلة من خلال تعامل بعض المفسرين مع اللغة باعتبار عطاءاتها وفقاً لطبيعة تشكيل الأساليب، وأنها تقوم على بعدين أصلي نمطي معياري، وبعد يتأتى بالعدول عن البنيات اللغوية المألوفة كالخروج عن مقتضى الظاهر، والتقديم والتأخير، والحذف، والالتفات وذلك كله تحصيل لقيم جمالية تقوم على الإبحار، وصناعة الشوق والدهشة، لتأتي بعدها المعاني الثواني التي بدونها لا يستوفي الخطاب جميع ما يريد الإفصاح عنه، وقد رأينا حضور ذلك واضحاً عند أبي السعود من خلال تفسيره (إرشاد العقل السليم)، وأن الرجل قد كان صاحب رأي في معالجة الأساليب اللغوية، وأنه تمثل ذلك في المستويين النظري والتطبيقي، وأنه كان حريصاً على تحصيل المعاني الثواني المستكنة وأن الكشف عنها لم يكن ليتم لولا ذلك الوعي الذي تميز به، وانتهيت إلى محصلة مفادها أن صنيعة ذلك قد شكل إرهاباً قوياً لبدائيات محمودة للاتجاه الأسلوبي في تراثنا البلاغي و لا حاجة لنا إلى إعادة التذكير بأن الهدف عن هذه المقاربة هو إضاءة هذه المسألة، التي يمكن أن تكون منصة انطلاق لمزيد البحث في هذا الاتجاه، ثم الوعي بأهمية استشارة اللغوي بأسئلة جادة، حيث تحمل الإجابات عنها المزيد من تأكيد أصالة الخلفيات المعرفية لمباحث اللغة عند علمائنا، وأن مجهوداتهم شكّلت قاعدة تأسيسية تجمع بين النظري والتطبيقي شديدة الصلابة يمكن البناء عليها.

الهوامش.

- القرآن الكريم (رواية حفص عن عاصم) المصحف الإلكتروني الملك سعود - المملكة العربية السعودية -.
- 1- أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، (471 هـ) دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ط/3، سنة: 1992، ص: 596.
- 2- أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (982)، تفسير أبي السعود/ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د ت) (د ط)، ص: 39/8.
- 3- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، سنة 1995 ص: 239/1.
- 4- المصدر نفسه، ص: 239/1.
- 5- الحسن بن محمد البوريني، تراجم الأعيان من أبناء الزمان، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات الجمع العربي، دمشق سوريا، سنة 1995، ص: 239/1.
- 6- التفسير والمفسرون، ص: 248/1.
- 7- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، (د ت) (د ط) دار ومكتبة الهلال، ص: 39/2.
- 8- عبد الحميد هندائي، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، عالم الكتب الحديثة، عمان، الأردن، ط/1، سنة: 2008، ص: 146.
- 9- محمد كريم كواز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، سنة 1426 هـ، ص: 22.
- 10- أبو البقاء العكبري البغدادي (616)، اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق: عبد الإله النبهان، دار الفكر، دمشق، ط/1، سنة: 1995، ص: 502/1.
- 11- فاطمة حسن عبد الرحيم، ظاهرة رفض الأصل في الدراسات النحوية، رسالة دكتوراه، إشراف: عبد الرحمن إسماعيل جامعة: أم القرى المملكة السعودية، ص: 11.

- 12- إرشاد العقل السليم، ص: 16/1.
- 13- المصدر نفسه، ص: 238/7.
- 14- المصدر نفسه، ص: 141/4.
- 15- المصدر نفسه، ص: 99/5.
- 16- المصدر نفسه، ص: 21/1.
- 17- المصدر نفسه، ص: 124/1.
- 18- المصدر نفسه، ص: 172/1.
- 19- المصدر نفسه، ص: 243/1.
- 20- المصدر نفسه، ص: 136/4.
- 21- محمد بن عبد الرحمن المغراوي، المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط/1، سنة: 2000، ص: 1234.
- 22- التفسير والمفسرون، ص: 248/1.
- 23- فريد بن عبد العزيز الزامل السليم، منهج أبي السعود في تفسيره من خلال ما كتب عنه، عرض ومقارنة، مجلة الحكمة، سنة: 1427، العدد: 33، جامعة القصيم، العربية السعودية، ص: 414.
- 24- جعفر صادق حمودي التميمي، التطبيقات البلاغية في تفسير أبي السعود العمادي، مطبعة دار حواء، مكتبة طريق العلم، بغداد، العراق، (ت، ط) (د، ت)، ص: 4.
- 25- دلائل الإعجاز، ص: 106.
- 26- السلمي عبد الرحمن بن رجاء الله، العدول بين صيغ الأفراد والتنشئة والجمع في القرآن الكريم، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، مكة المكرمة، السعودية، العدد: 12، سنة: 2014، ص: 142.
- 27- إرشاد العقل السليم، ص: 26/6.
- 28- المصدر نفسه، ص: 105/3.
- 29- المصدر نفسه، ص: 102/2.
- 30- أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم الزرزور، الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/2، سنة: 1987، ص: 416.
- 31- دلائل الإعجاز، ص: 262.
- 32- التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، دار المريخ للنشر، الرياض، العربية السعودية، سنة: 1980، ص: 4.
- 33- محمد بن أبي بكر شمس الدين بن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية ط1 سنة: 1991 بيروت لبنان، ص: 167/1.
- 34- أبو سليمان محمد بن إبراهيم الخطابي، بيان إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زعلول سلام، دار المعارف، مصر، ط/3، سنة: 1976، ص: 36.
- 35- أبو بكر الباقلاني، (403 هـ)، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط/5، سنة 1997، ص: 16.
- 36- إرشاد العقل السليم، ص: 71/1.
- 37- المصدر نفسه، ص: 224/3.
- 38- المصدر نفسه، ص: 170/3.
- 39- أبو الحسن بن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص: (د ت) (د، ط)، ص 119.
- 40- محمد محمد أبو موسى، دلالات التراكيب دراسة بلاغية، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، مصر ط/2، سنة 1987، ص: 12.
- 41- المرجع نفسه، ص: 12.
- 42- المرجع نفسه، ص: 19.
- 43- يحيى بن حمزة العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم الأعجاز، المكتبة العصرية، ص: 10/1.

- 44- بسيوني عبد الفتاح فيود، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ط/4 سنة: 2015، ص 10.
- 45- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر، (د، ت) (د، ط)، مصر، ص: 145/2.
- 46- حسن منديل حسن العكيلي، الإعجاز القرآني في أسلوب العدول عن النظام التركيبي النحوي والبلاغي، دار الكتب العلمية، ط: 1، سنة: 2009، ص: 57.
- 47- يحيى بن حمزة العلوي، (745هـ) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط: 1، سنة: 1423هـ، ص: 72/2.
- 48- إرشاد العقل السليم، ص: 16/1.
- 49- أبو الفتح عثمان بن جني، خصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط/4، (د، ت)، ص: 362/2.
- 50- المصدر نفسه، ص: 449/2.
- 51- إرشاد العقل السليم، ص: 123/1.
- 52- المصدر نفسه، ص: 78/8.
- 53- المصدر نفسه، ص: 98/8.
- 54- دلائل الإعجاز، ص: 106.
- 55- إرشاد العقل السليم، ص: 149/1.
- 56- المصدر نفسه، ص: 150/1.
- 57- المصدر نفسه، ص: 61/1.
- 58- المصدر نفسه، ص: 7/2.
- 59- المصدر نفسه، ص: 214/3.
- 60- دلائل الإعجاز، ص: 146/1.
- 61- عبد الرحمن هندواي، الاتجاه الأسلوب في التفسير، دار البشير، الشارقة، الإمارات، ط/1، سنة: 2024، ص: 526.
- 62- إرشاد العقل السليم، ص: 131/1.
- 63- المصدر نفسه، ص: 183/1.
- 64- محمد بن علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: د علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط/1، سنة: 1996، ص: 1600/2.
- 65- يوسف بن أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط/2، سنة: 1987، ص: 199.
- 66- المصدر نفسه، ص: 199.
- 67- إرشاد العقل السليم، ص: 58/1.
- 68- المصدر نفسه، ص: 282/5.
- 69- المصدر نفسه، ص: 282/5.